جامع الوزير (المَدرَسَة التُتُشيَّة) بعيون الرحالة الأجانب

أنس عبد اللطيف طه
دار الثقافة والنشر الكوردية

الملخص

ارتبط تقدم الحضارة الإسلَاميَّة بتطور المَدَارِس من خلال ما تقدمه من علوم سواء كانت علوم نقليَّة أو عقليَّة أو علوم تطبيقيَّة بحتة، وقد ساهمت تلك المَدَارِس في رقي المجتمع الإسلَاميّ، وكذلك إهتمام السلاطين والوزراء والمقتدرين بإنشـاء وتعمير المَدَارِس من خلال ما يوقف لها من أموال وأرزاق ورواتب لمدرسـيها ومعيديها وعلى طلابها من مسـكن ومأكل وكسوة، وإن المَدرَسَة التُتُشيَّة (جامع الوزير) لا تختلف عن تلك المَدَارِس من حيث إنشـاؤها وتمويلها إذ كانت أحدى منارات العلم منذ تأسيسها في بدايات القرن السادس الهجري، واسـتمرّ التدريس بها مُدّة طويلة بعد سُـقُوط بَغدَادَ وعُمّرت في عهد الوالي العثماني حَسن باشا، وعلى الرغم من تحولها إلَى جامع إلا إن وظيفة تدريس العلوم الشرعيَّة بقيت مسـتمرة فيه، يظهر لنا ذلك بتَتبُّع تاريخ الجامع واستقراء مشاهدات الرحالة الأجانب.

كلمات مفتاحيَّة: التُتُشيَّة, الوزير, حسن باشا, المَدَارِس, الرحالة.

نالـت المَـدَارِس العَبَّاسـيّة في عاصمة الخلافة بَغـدَاد مـن الشـهرة ما فـاق مثيلاتهـا في العالم الإسـلَاميّ، وكان يتوافـد إليهـا طـلّاب العلم من أصقـاع المعمورة كافّة، لمـا توافر لهـذه المَدَارِس من دعـم الخُلَفَـاء والـوزراء والشرائـح المتمكنة في المجتمـع، فضـلًا عـن تطـور مناهـج تدريس العلوم النقليَّة والعقليَّة والتجريبيَّة. انتهى القرن الرابـع الهجـري وكان الناس يتلقـون التعليم في المساجد والمنازل والحضر حيث توجد تلك المعاهد النـادرة[1]، ولقد حفلت بَغدَاد منذ أواسـط القرن الخامس الهجري بعددٍ كبير من المعاهد والمَدَارِس الكُبرى القائمة بذاتهـا، المُنفصله عن الجوامع[2]، وظاهرة تأسـيس المَـدَارِس التعليميَّة التي عرفت بالنظاميَّـات في عهـد الوزيـرِ السـلجُوقيّ نظام المُلك، كما واصل الأُمَرَاء بعد هذا العصر تأسـيس المَـدَارِس في حقبـة كان العالـم الإسـلَاميّ يواجهُ خطرَ الغزو الصليبـيّ والتمزق الداخلي[3] وكانت المَدَارِس في إزدياد مسـتمر منـذ ذلك الحين حتى سُقُوط بَغدَادَ بيد المغول سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م)، فقد كانت مَدَارِسها يومئذ ثماني وثلاثين مَدرَسَة، بين مَدرَسَـة أنشـئت لمذهبٍ واحدٍ أو مُشتركة بين مذهَبَـين أو لأربعـةِ مذاهـب[4]، ومن أشـهر هذه المَدَارِس (المَدرَسَة النظاميَّة، والمَدرَسَة المستنصريَّة، والمَدرَسَـة الشرابيَّة.... إلخ) وموضوع البحث هنا هي (المَدرَسَة التُتُشيَّة).

أسست هذه المَدرَسَـة في بدايَّة القرن السادس الهجري عـام ٥٠٠هـ على يـد خمارتكين مملوك السـلطان (تُتُش) السـلجُوقيّ، وكان يُدرّس فيها المذهـب الحنفي، ولم يسـلط الضـوء عليها كثيرًا مثـل بقيَّـة المَـدَارِس الأخـرى، أمثـال النظاميَّة والمسـتنصريَّة، بسـبب قلـة المعلومـات عنهـا في المَصَادِر والمراجع الإسـلَاميَّة، عـلى الرغم من أنها كانـت تحتـل موقعًا متميـزًا في بَغـدَاد، فهي على شاطىء دجلة، وقريبة من المَدَارِس المذكورة.

في هذه الدراسة سوف نستعرض نشأة المَدرَسَة التُتُشـيَّة وموقعَهـا ووظيفتَها، فضـلًا عمَّا جرى عليها من أحداث حتى سُقُوط بَغدَادَ بيد الاحتلالِ المَغـوليّ, وعلى الرغم من قلـة المعلومات والمَصَادِر عن المَدرَسَة وقلةِ الإشارات إليها، إلا إننا سنحاول تتبـع ما حدث فيها مع تـوالي القرون، والمتغيرات التـي أصابت هـذا المَعلَم، وهل حدثـتْ فعلاً فيها تغيرات جذريَّة في البناء واسم المَدرَسَة، وإن حصل ثمـة تغير في الشـكل، فهل هو تعمـير أم بناء على هيئة جديـدة، وهل بقيـت على وظيفتِها نفسـها من حيث كونُها مَدرَسَـة؟ ولذلكَ قامت الدراسـةُ على تَتبُّع مَعلَم مُهم يُعتَقد أنّه حلَّ محلَّ المَدرَسَـةِ التُتُشـيَّة ألا وهـو جامع الوزير، وسـوف نحاولُ مَعرفـةَ أخبارِه من بدايَّةِ العهـدِ العُثمانيّ وصولًا إلَى القرن العشرين، بناءً على رحلاتِ المسـتشرقين الأجانب والمُسـلمين ورسوماتِهم في أثناءِ زياراتهم إلَى بَغدَادَ أثناء الحقبةِ العُثمانيَّة.

أولًا: تأسيس المَدرَسَة التُتُشيَّة

أسّـسَ المَدرَسَـةَ الأميرُ خمارتكين بن عبد الله

(١) بوعبدلي المسـعود عبد الوهاب، أهم المدَارِس النظاميَّة في العصر السـلجُوقيّ في القـرن الخامس الهجري الحـادي عشر الميـلادي، مجلـة المنتقـى للبحوث والدراسات، مج٢، العدد٤، ٢٠١٢، ص٨٦.

(٢) مصطفـى جواد، بغـداد، نقابة المهندسـين العراقيَّة، ١٩٦٩، ص١٢٩.

(٣) مـروان بن شـوش، دور المـدَارِس في النهضة العلميَّة بالمـشرق الإسـلاميّ خـلال القـرن (٥-٦هـ ١١-١٢م)، مجلـة الإصبـاح للعلوم الانسـانيَّة، عدد٦، ٢٠٢١، ص٣.

(٤) ناجي معروف، نشـأة المدَارِس المسـتقلة في الإسـلام، مطبعة الأزهر بغداد، ١٩٦٦، ص٥.

من مماليكِ السلطان السلجُوقيّ (تُتُش) في حدود سنة ٥٠٠ هـ[٥]، يقول ياقوتُ الحَمويّ فيها (تُتُش: التاءان مضمومتان والشين معجمة، وهو اسم رجل تنسب إليه مواضع ببَغدَاد، وهي سوق قرب المَدرَسَة يقال له العقار التُتُشي، ومَدرَسَة بالقرب منه لأصحابِ أبي حنيفة يقال لها التُتُشيَّة، والجميع منسوبٌ إلَى خادم يقال له خمارتكين كان للملك تاج الدولة بن إلب أرسلان بن داود بن سلجوق)[٦]، ويقول المؤرخ البَغدَادي ابن الفوطي في ترجمة هذا الأمير (خمارتكين مولى الشيخ أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب البَغدَادي)[٧]، ويذكر مصطفى جواد في دليله (المَدرَسَة التُتُشيَّة نسبة إلَى أحد مماليك السلطان تُتُش السلجُوقيّ ملكِ الشام والعراق حينًا)[٨].

ثانيا: موقعها في خطط بَغدَاد

وحسب خطط بَغدَاد، فإن المَدرَسَة التُتُشيَّة تقع على ما قاله ابن الجوزي، في مشرعة درب دينار الكبير بين محلة الحظائر التي نشأت على أرضها المَدرَسَة المستنصريَّة، ودار قرآنها (جامع الآصفيَّة) وبين مَدرَسَة الأمير سعادة، التي يعتقد أنّ مكانها الحالي مجمع المحاكم المدنيَّة[٩]، أو ما يسمى الآن (المركز الثقافي البَغدَادي)، وقد حدَّد مصطفى جواد موقع المَدرَسَة وما أصبح عليه من منشآت بعد اندثار المَدرَسَة بأن (المَدرَسَة التُتُشيَّة وهي جامع الوزير)[١٠] وحسب الرسم الخططي لبَغدَاد، يكون تقدير مكان المَدرَسَة ((وجامع الوزير يقع في الضفة اليسرى من دجلة على رقبة جسر المأمون «جسر الشهداء» من الشمال، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلَى الوزير حسن باشا والي بَغدَاد (١٠٠٦-١٠٠٨هـ) كان من جملة الولاة الذين قاموا بترميم المساجد أو تجديدها))[١١]، وقد حدد مصطفى جواد مكان المَدرَسَة التُتُشيَّة على وفق المَصَادِر التي استعان بها والشواهد الباقية من العصر العَبَّاسيّ في رسم خطط للمعالم الزائلة وكما موضح في المخطط أدناه:

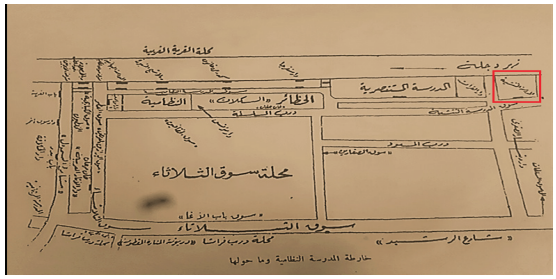

المخطط رقم (١)[١٢]

ويَذكر عبّاس العزاوي في معرضِ حديثه عن جامع الوزير (أصل هذا الجامع من بناء الخليفة المُستنصِر بالله العَبَّاسيّ ويُسمى المسجد ذا المنارة[١٣]، وقد شاهد الرخامة المكتوبة على محراب

(٥) محمد سعيد الراوي, خير الزاد في تاريخ مساجد وجوامع بغداد، تحقيق د. عماد عبد السلام رؤوف، مطبعة الوقف السني، بغداد، ٢٠٠٦، ص٧٢-٧٣.
(٦) ياقوت الحموي, معجم البلدان، تحقيق محمد أمين خانجي، ج٢، مصر، ص٣٦٦.
(٧) ابن الفوطي, تلخيص مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب، تحقيق مصطفى جواد، ج٤، المجمع العلمي، دمشق، ترجمة ٥٧٧.
(٨) مصطفى جواد وأحمد سوسة, دليل خارطة بغداد، المجمع العلمي، بغداد، ١٩٥٨، ص٢٣٣-٢٣٤
(٩) عماد عبد السلام رؤوف, مَدَارِس بغداد في العصر العباسي، ط١، مطبعة البصري، بغداد، ١٩٦٦، ص٤٩
(١٠) المصدرُ نَفسُه، ص١٨٣.
(١١) المصدرُ نَفسُه, ص٢٣٣.
(١٢) مصطفى جواد, مجلة سومر، المدرسة النظاميَّة، مج ٩، ج٢، ١٩٥٣م، ص٣٤٤.
(١٣) عباس العزاوي, العراق بين احتلالين، ج٤، بغداد، مطبعة التجارة، ١٩٤٩م، ص١٤٣.

الجامع التي تؤرخ عمارةَ المسجد في عهدِ الوالي حسن باشا في سنة (١٠٠٨هـ)[١٤]. والمعروف عن الوالي حسن باشا[١٥] أنه بنى وعمّر المساجد في بَغدَاد، وقد ذكر بعضُ المَصَادِر أنّ التدريس استمر في المَدرَسَة التُتُشيَّة إلَى ما بعد سُقُوط بَغدَادَ بيد المغول، وكما في النصّ (وأبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن القرشي العدوي العمري الصاغاني صاحب (العباب) المعجم المشهور، تولى تدريسها (المَدرَسَة التُتُشيَّة) سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م، وشمس الدين محمد بن عبد الله الهاشمي الكوفي المتوفى سنة ٦٧٥هـ/١٢٧٦م، ومجد الدين أبو المظفر الحسين بن محمد بن أحمد الدامغاني عصري ابن الفوطي) [١٦]، ويضيف (وتبين من أسماء من قام بالتدريس فيها من الشيوخ أنها ظلت نشطة حتى منتصف القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي)[١٧].

ويتضح من النص المذكور آنفا، أن التدريس استمر في المَدرَسَة على الرغم مما تعرضت له من اضطرابات وأزمات نتيجة الغزو المغولي، وهذا يطرح تساؤلاً مفاده، هل استمر التدريس فيها بعد هذا العصر؟ وهل حافظت المَدرَسَة على بنائها الأصلي أو تغير شكلها مع الحفاظ عليها كمؤسسة تعليميَّة؟ لا يمكن الإجابة بشكل واضح على هذه الأسئلة، وذلك بسبب قلة المَصَادِر عن تلك المرحلة المضطربة، لكن سنحاول تلمُّس بعض الإشارات عن هذا المَعلَم حتى نهايَّة السيطرة العثمانيَّة على العراق في سنة ١٩١٨.

ثالثا: أخبار المَدرَسَة أو الجامع في رسومات الرحالة الأجانب:

وأولى الإشارات التي تعطي لمحة عن ذلك المعلم، رسومات نصوح أفندي الملقب (مطراقي زاده)[١٨] صاحب السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠

(١٤) المصدرُ نَفسُه.

(١٥) حسن باشا, هو ابن الصدر الأعظم محمد باشا، ارتقى إلى رتبة أمير الأمراء (بكلر بكلي) وفي سنة ٩٧٨هـ (١٥٧٠م) أرسل واليًا إلى ديار بكر وتولى ولاية الشام أربع مرات وولاية البوسنة مرتين وفي سنة ١٠٠٤هـ (١٥٩٤م) ارتقى إلى رتبة الوزير الخامس وعين لمحافظيَّة بلغراد، ومن سنة ١٠٠٦هـ (١٥٩٦م) واليًا على ولايَة بغداد، ثم أحيل إلى قيادة الجيش لمحاربة العصاة في توقات، وقتل في قلعتها سنة ١٠١٢هـ (١٦٠٢م) المصدر, عبد الحميد عبادة، العقد اللامع بآثار بغداد والمساجد والجوامع، تحقيق عماد عبد السلام رؤوف، بغداد، مطبعة أنوار دجلة، ٢٠٠٤، ص٢٧١-٢٧٢.

(١٦) بشار عواد معروف، التربيَّة والتعليم، موسوعة الحضارة، ج٨، بغداد، ١٩٨٥، ص٧٣-٧٤.

(١٧) عبد العزيز حميد، سوق السراجين ببغداد، مجلة سومر، مج ٥٣، ج١-٢، بغداد، ٢٠٠٥-٢٠٠٦، ص٤٥٠ والمصدر، بشار عواد معروف: التربيَّة والتعليم، موسوعة الحضارة، ص٧٣.

(١٨) نصوح أفندي المطراقي زاده, هو نصوح السلاحي بن عبد الله قره كوز الشهير بمطراقي زاده، وهو مؤرخ ورحالة ورياضي وعسكري ورسام، أصله من ولايَة البوسنة يوم كانت تابعة للدولة العثمانيَّة، ولد في قريَة (فيسوكو) القريبة من سراييفو سنة ٨٨٤هـ/١٤٨٠م، انضم إلى نظام الدوشرمة العسكري ثم دخل القوات الانكشاريَّة، وترقى فيها حتى أصبح ريس (رئيس) أي عميد بحري، وكان ماهرًا في ألعاب الأسلحة حتى اكتسب لقب المطراقي، والمطراق هو درع مغلف بالجلد يستخدمه الفرسان في قتالهم، وبسبب ثقافته الواسعة عين في ديوان السلطان سليم الأول، ورافقه في حملته على المماليك في مصر، ورافق السلطان سليمان القانوني في أغلب حملاته العسكريَّة وكلف بتسجيل الحملات العسكريَّة وتزيينها بالصور الملونة، ألف كتابًا عن العراق سماه (منازل العراقيين للسلطان سليمان خان) ووصف ورسم في هذا الكتاب مدن العراق بشكل دقيق، توفي في١٦ رمضان ٩٧١هـ/٢٨ نيسان ١٥٦٤. المصدر: عماد عبد السلام رؤوف، العراق كما رسمه المطراقي زاده، مركز كربلاء للدراسات والبحوث، كربلاء، ٢٠١٥, ص١١-١٢-١٣.

م_ ١٥٦٦م) في حملتة على بَغدَاد في سـنة ١٥٣٤م، حيث رسم عدة لوحات ملونة عن مدن العراق، كما رسـم بَغدَاد بجانبيهـا الرصافة والكـرخ موضحاً أبرز معالمها من أبنيَّة ومشـاهد ومساجد، وقد بين ما على الواجهة النهريَّة من إنشاءات ومبان، إذ يبرز قرب الجسر من جانب الرصافة من الجهة اليسرى على كتف الجسر رسم بناء وصفه عماد عبد السلام بقولـه (ثمـة برج اسـطواني عال يطـل على دجلة مباشرة تعلوه رقبة فظلة حمراء بارزة إلَى الخارج، وتتـدرج صعودا مـن الجهة الأخـرى حتى جوف البرج وتستند إلَى هذه الرقبة قبة خضراء على شكل نصف كرة، ويظهر أن جدار هذا البرج من المتانة ما جعله جزءا من السـور الشاطئي)[١٩] ويعتقد عماد عبد السلام أن هذا البناء هو المَدرَسَة التُتُشيَّة بقوله (يكون المبنى أقيم في موقع المَدرَسَـة التُتُشيَّة إحدى مَدَارِس العصر العَبَّاسيّ حيث أنشئ في أرضها فيما بعـد جامع الوزير)[٢٠] ونرى البناء كما في الشـكل الآتي:

الشكل رقم (١)

وهذه أول رسـمة تصلنا عن شـكل البناء الذي يعتقد للمَدرَسَة التُتُشـيَّة، ونرى بوضوح إذا أمعنا النظـر في اللوحـة وفي شـكل البنـاء داخـل المربع الأحمـر، ملامح الطراز العَبَّـاسيّ من حيث تصميم القبـة والبنايَّة المسـتندة إليها القبـة ومتانة البناء

(١٩) المصدر نَفسُه.
(٢٠) المصدرُ نَفسُه.

حتى أصبحت جزءًا من سور الشاطئ وهذه صفات بناء المَدَارِس العَبَّاسيّة التي توفر متانة البناء، مثلها مثل المستنصريَّة التي مازالت شاخصة إلَى اليوم.

لم يصل إلينا من المَصَادِر السـابقة قبل دخول العثمانيين بَغدَاد عن حدوث عمليات ترميم أو بناء للمَدرَسَـة التُتُشـيَّة أو إنشـاء صروح معماريَّة في بَغدَاد سـوى ما ذكر عن بنـاء جامع مرجان أو الخان المجاور له، لذلك يستنتج من هذا أن المَدرَسَة التُتُشـيَّة قد حافظت على بنائهـا العَبَّاسيّ الأصيل، عـلى الرغم مـن أنها فقـدت وظيفتها التدريسـيَّة، بسـبب الاضطرابات والحـروب والأوبئة والكوارث الطبيعيَّـة مـن فيضانات دجلة والفـرات المتكررة، منذ الاحتلال المغولي حتى السـيطرة العثمانيَّة على بَغدَاد سنة ١٥٣٤م.

إن أول ذكر لتعمير هذه المَدرَسَة أو الجامع بعد السـيطرة العثمانيَّة ما قاله العزاوي (بنى حسـن باشا الجامع المعروف باسمه ويقال جامع الوزير)[٢١] ويضيـف أيضًـا أن النقـش على المحـراب فيه تاريخ إنشـائه وقام العزاوي بنقـل النص الموجود (بسـم الله الرحمن الرحيم، إنما يعمر مساجد الله من أمن بالله واليوم الآخر، عُمر هذا المسجد في أيام خلافة خليفة الرحمن السـلطان إبن السـلطان إبن السـلطان محمد خان ابن السـلطان مراد خان.... الـخ)[٢٢]. وعند تحليل النص المذكور آنفًا ولاسـيما عبارة (عُمر هذا المسـجد) وذكـر كلمة عُمر وليس كلمة بنـاء، يتبين لنا أن الجامـع كان موجودًا قبل ترميمـه، وهذا يدل عـلى أن الجامع من المنشـآت القديمـة وقـد ترجـع إلَى العصر العَبَّـاسيّ، وكذلك

(٢١) عبـاس العـزاوي، العراق بين احتلالـين، ج٤، بغداد، مطبعة التجارة، ١٩٤٩، ص١٤٣
(٢٢) المصدرُ نَفسُه، ص١٤٣.

تـأكيـده (وأصـل هـذا الجامـع من بنـاء الخليفة المستنصر بالله العَبَّاسيّ ويسمى المسجد ذي المنارة)[٢٣] واذا تتبعنـا أخبـار الجامع بعد تاريخ الإعمار في سـنة ١٠٠٨هـ / ١٥٩٩م عن طريـق كتابات ورسـوم المسـتشرقين الأوربيين الذين زاروا المدينة منذ القرن السـابع عشر الميـلادي، إذ يقول جيمس بكنغهـام الذي زار بَغدَاد وشـاهد جامع الوزير في سـنة ١٨١٦م (أما جامع الوزيـر فيقع قرب دجلة عـلى بعـد بضع ياردات مـن باب الجـسر، وله قبة جميلة ومنارة عاليَّة)[٢٤].

وهذا وصف انبهاره بقبة جامع الوزير ومنارته العاليَّة، وفي رحلة أخرى قامت بعثة بريطانيَّة لمسح نهـري دجلة والفرات وسـميت هـذه البعثة (بعثة جسـني للأعـوام ١٨٣٥_١٨٣٦_١٨٣٧)[٢٥]، وفي إحـدى الرحلات في سـنة ١٨٣٦م قـام أحد ضباط البحريَّة المشـاركين برسم لوحة للواجهة الشاطئيَّة من جانب الرصافة، ويظهـر فيها جامع الوزير في أثناء مرورهم ببَغدَاد عبر نهر دجلة رسـمها الملازم جيمس فيتز جيمـس (Games.fitzgames)[٢٦]،

(٢٣) المصـدر السـابق، ص١٤٣ ينظـر, العـزاوي، جامع الوزير، مجلة بغداد، عدد٢٣، ١٩٦٥، ص٢٠.

(٢٤) محمد المحلاوي، رحلـة بكنغهام وصف بغداد، مجلة سومر، مج١٠، ج ٢، ١٩٥٤، ص٢٧١. ينظر, بغداد بأقلام الرحالة، دار الوراق، بغداد، ٢٠٠٧، ص١٠٩.

(٢٥) مكتبة قطر الرقميَّة، حملة الفرات ١٨٣٥-١٨٣٧.

(٢٦) جيمـس فيتز, ولد في ٢٧ تمـوز ١٨١٣ وكان ضابطًا في البحريَّـة الملكيَّـة البريطانيَّـة شـارك في بعثـة لاستكشـاف الفرات سنة ١٨٣٥م وشارك في الحرب المصريَّة (حملة محمد علي) سـنة ١٨٤٠م وشـارك في حـرب الأفيون عـلى الصين سـنة ١٨٤٢م، وكان ضابطًـا ضمـن بعثـة جنـسي لمسـح نهـري دجلة والفـرات، وشـارك في حملة السـير جـون فرانكلين لاستكشـاف القطب الشـمالي، وكان جيمس قبطان إحدى السـفينتين المشـاركتين في الحملة، لكنه فقد مـع سـفينته في ظـروف غامضـة في أثنـاء الرحلة سـنة ١٨٤٥م المصـدر, www.jamesfitzjames.com. وليام باترسـبي، جيمس فيتز جيمس الرجل الغامض في بعثة فرانكلين، المملكة المتحدة، ٢٠١٠.

(27) GeneralFrancis Rawdon Chesney,Narrative of the"Euphrates Expedition" ,London,Longmans,Green,and Co,1868.p309

(٢٨) يوجـين فلاندين:هـو جان باتيسـت يوجـين نابليون فلاندين، ولد سـنة ١٨٠٩، مستشرق ورسام وعالم آثـار فرنـسي زار العراق وبلاد فـارس، وبحث في آثارهما، ورسم لوحات لتلك المدن والآثار التي زارها، وبعد عودته إلى فرنسـا منح وسام الجوقة الفرنسي،

ونـرى في اللوحة أن الجامـع ذو ثلاثة صفوف، كل صف فيه سـت نوافـذ وبقبة رائعـة عاليَّة وجميلة ومنارة رشـيقة، والبناءعمومًا يمثل طرازًا بَغدَاديًا أخذ أصولـه من العمـارة العَبَّاسـيّة، ونرى بقرب الجامـع الـبرج الفلكـي وجامـع الآصفيَّـة بقبتيه المشهورتين وجسر القوارب والمَدرَسَة المستنصريَّة، وكما في الشكل الآتي:

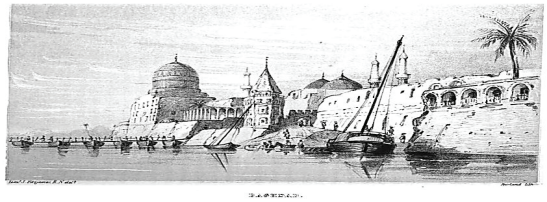

الشكل رقم (٢)[٢٧]

نلاحـظ عند مقارنة الشـكل الأول الذي رسـمه مطراقي زاده في سنة ١٥٣٤م والشكل الذي رسمه جيمس فيتز سـنة ١٨٣٦م وجود شـبه تطابق من حيث شـكل الجامع، من ضخامـة القبة، ووقوعها قرب جسر الـزوارق أيضًا، ما يدلُّ على أن المنشـأة قد تكون مـن العَصر العَبَّاسيّ، وأنها صمدت طوال تلك القرون وصولًا إلَى بدايات القرن التاسـع عشر. وفي لوحة ملونة أخرى تعود إلَى المستشرق الفرنسي يوجـين فلانديـن (Eugene. Flandin)[٢٨] الذي

زار العــراق في بدايَّة أربعينات القرن التاســع عشر ضمن بعثة للتنقيب عن الآثار والاستكشاف بقيادة باسكال كوست(pascal.Coste) في العراق وبلاد فارس، وتحدث عن مشاهدتة لبَغدَاد ومما ذكر عن جامــع الوزير (نرى مســجدا كان جميــلا جدا في الماضي، وتســبب فيضان حديث في إنهياره وجرف نصفه في مجــرى النهر)[٢٩]، ونرى منظــرًا جانبيًا للواجهــة الشــاطئيَّة لمدينة بَغدَاد في ســنة ١٨٤١م وتظهر أهــم المعالم الرئيســيَّة على شــاطئ دجلة، حيــث تظهر بقايــا المَدرَسَــة المســتنصريَّة وجامع الآصفيَّــة والــبرج الفلكــي، وبعــده جامــع الوزير وجــسر القوارب، ونــرى أن نصف القبــة من جهة النهــر منهار، وتتبين بوضوح ملامح القبة الجميلة المزخرفة، وكما في الشكل رقم (٣):

الشكل رقم (٣)[٣٠]

وفي لوحة للرســام نفســه مــن الجهــة المقابلة للنهر، نرى جامع الوزير بشكل أوضح، حيث تبدو الواجهة النهريَّة قد سقطت وساحت في الماء، والقبة الضخمة مســتندة إلَى قبة أصغر بينهما فراغ، وكما في الشكل رقم (٤):

الشكل رقم (٤)[٣١]

وارتكاز القبة الكبيرة على القبة الصغيرة لتحمل ثقلهــا، هو مثال على العمارة العربيَّة الإســلَاميَّة في بَغدَاد، ونشاهد أيضًا الزخارف الداخليَّة التي تعطي فكرة عن تزيين الجامع من الداخل، وإن كانت غير واضحة، ويرجح سبب انهيار واجهة جامع الوزير، الكوارث الطبيعيَّة، كفيضان نهر دجلة، فقد وجدنا أن أحــد الفيضانات الكبيرة ضربت بَغدَاد في ســنة ١٨٣٩م، إذ يصــف شــاهد عيــان عــاصر الأحداث بقوله (شــاهدنا جورها (جور الماء) مرارًا، وأعظم ما شــاهدناه بعــد حادثــة الطاعون ما وقع ســنة ١٢٥٥هـــ/ ١٨٣٩م، فإن دجلة طغى ماؤها، حتى تساوى من بَغدَاد أرضها وسماؤها، وغيرت جدران بيوتهــا بين ســاجد وراكع وخاضع وخاشــع)[٣٢]، والمرجح أن سقوط القبة في سنة الفيضان المذكورة في النص، بين انهيار القبة في لوحة الرســام يوجين فلانديــن ســنة ١٨٤١م ولوحة جيمس فيتز ســنة ١٨٣٦م، والتــي كانت قائمة لم تهدم، وعليه يمكن حــصر تهدم القبة بين تلك المدة (لوحة فيتز ولوحة فلانديــن)، أو بتعبــير آخــر بين الأعــوام (١٨٣٦ـ ١٨٤١). وفي رحلــة مســتشرق بريطانــي آخر هو

وألف كتابًا عن رحلته سماه (رحلة إلى بلاد فارس)، توفي سنة ١٨٧٦. المصدر www.Artvee.com.

(29) Eugene Fladin, Voyage En Meso-potamie, Nouveau Journal Le tour du Monde, Paris ,Boulevard saint-Germain,1861,N77,V2,P58>

(٣٠) المصدر السابق، www.Artvee.com.

(31) E. Flandin,op.cit,p.61.

(٣٢) أحمد سوسة, فيضانات بغداد، القسم الثاني، مطبعة الأديب، بغداد، ١٩٦٥، ص٣٧٥.

هنـري سـتيرن (Henry A. Stern)[٣٣] الذي زار الشرق الأوسـط والقـدس والعراق سـنة ١٨٥٠م، وأقام في بَغدَاد ثلاثَ سنوات، وألَّف كتابًا عن رحلته بعنـوان (انبثاق النور من الـشرق)، وتكلم فيه عن أحوال بَغدَاد الاجتماعيَّة والعمرانيَّة، ووصف المُنشأ فيها من جوامع وأسواق وبيوت، كما وصف جوامع بَغـدَاد بقوله (إن المباني الرئيسـيَّة داخل جدرانها المحطّمة والمكسورة هي مساجدُ الشيخ عبد القادر والشـيخ شـهاب الدين وجامع الوزير على ضفاف دجلـة وجامع الميداوي (جامع الميدان)، وحتى هذه المسـاجد القليلة باسـتثناء المسـجد الأول لا يمكن إصلاحُها) [٣٤] نفهم من النصّ، الحالة المزريَّة التي وصـل إليها الجامع حتـى ما عاد بالإمـكان إعادة إعماره.

وقـد ورد خـبر يفيـد ببنـاء مَدرَسَـة في جامع الوزير وهذا نصّهُ: (وقد أمر بإنشـاء مَدرَسَـة فيه مطلـة عـلى دجلـة ذات منظر بهي، تـروق النفس لرؤياها، وهو جناب المشير أحمد توفيق باشا وذلك سنة ١٢٧٧[١٨٦٠م] وعُين لتدريس العلوم النقليَّة والعقليَّة العلامة طه أفندي السنندجي السنوي[٣٥]، وفي عام ١٨٧٤م زار المستشرق الأميركي وليام بيري فـوغ (Williame.perry .fogg)[٣٦] بَغـدَاد، وقد تكلم فـوغ عن زيارته لبَغدَاد، وأنـه رأى جوامعها والـدور الصغـيرة المطلة على نهر دجلـة والقوارب المتعـددة الأنـواع، في النهر، كما تكلم عن الأسـواق والمقاهـي فيها، والتقى في أثنـاء زيارته والي بَغدَاد رديف باشا الذي استقبله بحفاوة، وسهل له مهمة إقامته في المدينة، وقـد وصف الضفة الشرقيَّة قرب الجسر العائم وما عليها من مبان، مثل قصر الباشا ودور عبـادة، منهـا جامع الوزيـر، بقوله (يجذب انتباهنـا شيء فريـد من نوعه، إنه مسـجد يقوضه التيـار السريع، لايزال نصـف قبته العاليَّـة باقيًا، تـاركًا أعمق تجاويف أماكن الصلاة فيه مكشـوفة للنظـر. هذا هـو الجزء الداخـلي الوحيد من مصلى مقدس للعبادة الإسلَاميَّة الذي يمكن لغير المؤمن أن يراه في بَغدَاد)[٣٧]، وهذا يعني أن البناء ظل صامدًا حتى سـبعينيات القرن التاسع عشر، ورسم لوحة للجامع، وكما في الشكل رقم (٥):

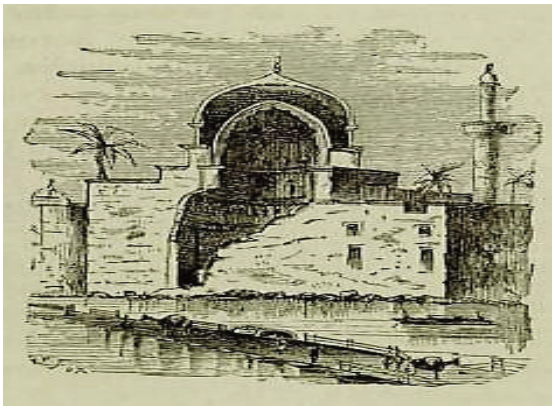

الشكل رقم (٥)

لا يعـرف على وجه الدقة متـى هدم البناء القديم المتهالـك، لكن تـم بنـاء الجامع من جديـد وبطراز عثماني واضح، إذ يذكر محمد سـعيد الراوي وصف

(٣٣) هنري ستيرن, هو قس من الطائفة الإنكليكانيَّة ولد في ألمانيا، وترعرع في لندن، أرسلته الجمعيَّة اللندنيَّة برحلـة إلى الـشرق، زار خلالهـا القـدس والعراق، وألف كتاباً عن الرحلة تحت عنوان (انبثاق النور في الشرق) في سـنة ١٨٥٤ المصدر: Henry a .stern .Dawnings of light in the East. land-on.١٨٥٤

(34) Henry a .stern .Dawnings of light in the East. landon.1854 . p40.

(٣٥) العقد اللامع، عبد الحميد عبادة، ص٣٧٠.

(٣٦) وليام فوغ, مسـتشرق أميركي، ولد سـنة ١٨٢٦، قام برحـلات إلى اليابان والبـلاد العربيَّة وفارس، وألف كتابًـا عن رحلتـه إلى البـلاد العربيَّـة عنوانه: بلاد العرب أرض الليالي العربيَّة، توفي سنة ١٩٠٩.

(37) Wm.perry fogg.A.M, Arabistan or the land of ‹‹the Arabian nights›› .dustin,gilman co.chicago. usa.1875. p214.

الجامع بقوله (وهو جامع رحب الفناء واسع المصلى، بقبـاب ثلاث مجرد عن الأعمدة، وقد كان في الأصل ذا قبـة واحدة كبيرة قدر قبة جامع الشـيخ عبد القادر الكيلاني، ولكن بإهماله تهدم قسم منها، ثم هدمتها الحكومة، فتركت قسـمًا منها للصحن، وبنت الباقي عـلى نحو مـا ذكرنا، وبنـت على يسـار المصلى قاعة شـامخة، ولكن من دون نقش وتزيين يعتد به، وعلى يمينه مَدرَسَـة ذات طبقتين مطلة عـلى دجلة أيضًا، وأمـام المصلى رواق مسـتطيل)[٣٨]، يشـير النص إلَى أن الجامع بني على هيئة جديدة مختلفة عن شـكلها الأصـلي إذ أصبحت له ثلاث قبـب صغيرة منخفضة، وهو أسـلوب تركي عثماني معـروف في البناء حينه، واسـتبدلت قبتـه الكبـيرة المتهدمة بمَدرَسَـة وقاعة بنيتـا على جانبـي المصلى مطلة جميعهـا على دجلة، وبذلـك تغيرت الهيئـة كليًا وضاعت معالـم الجامع القديم وإلى الأبد، وقام دونالد ماكسـويل(.Donald Maxwall[٣٩] برسم لوحة تبين معالم بَغدَاد على نهر دجلة في سنة ١٩١٨، وكما في الشكل رقم (٦):

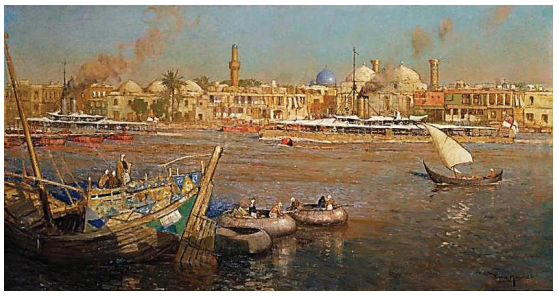

الشكل رقم (٦)

(٣٨) محمـد سـعيد الـراوي , خـير زاد في تاريخ مسـاجد وجوامع بغداد، ص٧٣-٧٤.

(٣٩) دونالد ماكسـويل, ولد سنة ١٨٧٧ في مدينة كلابهام سري، وتعلم فن الرسـم في مدرسـة سـليد للفنون الجميلة في كليَّـة لندن، والتحق بالأدميراليَّة البحريَّة كرسـام طبوغرافي في الحـرب العالميَّـة الأولى، كانت أغلـب رسـوم ماكسـويل تـدور حـول رحلاته إلى أوربـا والعـراق وفلسـطين وتـوفي سـنة ١٩٣٦. المصدر,en.m.wikipedia.org .

نرى في الجانب الأيسر من الرسـمة بناءً مكونًا من ثلاث قباب، هو جامع الوزير بعد تجديد البناء، وفي السـنوات اللاحقة تعرض الجامع إلَى الهدم، إذ يذكر عماد عبد السـلام (نقض الجامـع بمرافقه، وأضيفـت بعض مسـاحته إلَى مدخل جسر المأمون (جـسر الشـهداء حاليًا) سـنة ١٩٣٩م. ثم أنشـئ على قسـم من أرضه مصلى جديـد، وبهيئة لا صلة لهـا بما كان عليه سـابقًا)[٤٠]، وجـرى تعمير آخر للجامـع في أواخـر خمسـينات القـرن العشريـن، ويذكر الجبوري (هدم هذا الجامع وانتهت عمارته سـنة ١٣٦٠هـ(١٩٣٩م) وبقي فضـاءً إلا منارته فأعـادت مديريَّـة الأوقـاف العامة سـنة ١٩٥٧م بنائـه ثم جدده ديـوان الأوقاف سـنة ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م[٤١] وهو الشكل الذي استقر عليه في الوقت الحاضر.

الخاتمة:

إن كثرة تعمير الجامع في الحقب السابقة أفقده طـرازه المعمـاري المميـز الـذي يرجـع إلَى العصر العَبَّـاسيّ، ولكن بقيت لمحات من هذا المعلم تشـهد على التأريخ الطويل الذي مر به منذ إنشاء المَدرَسَة حتى أصبح جامعًا، لكنه حافظ على كونه مؤسسـة تعليميَّة واسـتمر التدريـس فيهـا إلَى بدايَّة القرن العشرين عـلى الرغم من اختفاء الملامـح المعماريَّة الأصيلـة في أواخـر القرن التاسـع عـشر، وهذا ما تمكنا من التوصل إليه من خلال كتابات ورسومات الرحالة سـواء كانوا عربًا، أم أجانـب زاروا بَغدَاد، ومن خلال تتبعنا لتطور المَدرَسَـة (الجامع) خلال حقب متعاقبة.

(٤٠) سعيد الراوي, خير الزاد، ص٧٤.

(٤١) محمود شكري الآلوسي: تاريخ مساجد بغداد وآثارها، تحقيق الدكتور عبد اللـه الجبوري، بغداد، ٢٠٠٦، ص٥٣.

ويمكـن إجمـال ماتوصل إليه البحـث بالنقاط التاليَّة:

- أُسسـت المَدرَسَـة التُتُشيَّة كمَدرَسَـة لتدريس العلـوم الشرعيَّـة لأصحـاب المذهـب الحنفي واسـتمر التدريس فيها مدّة ليسـت بالقصيرة بعد سُقُوط بَغدَادَ بيد المغول.
- ظهـر أول شـكل للمَدرَسَـة في لوحة رسـمها نصوح المطراقـي لبَغدَاد أثنـاء مرافقته حملةَ السـلطان سـليمان لفتح بَغدَاد سنة ١٥٣٤م إذ يظهـرُ بناءٌ مُقبّب من جهة اليسـار بجانب الجسر الوحيد الذي يربط شطري المدينة.
- عُمرت المَدرَسَـة في ولايَّة الوالي العثماني حسن باشـا سـنة ١٥٩٩م وهذا يعنـي إحتمال بقاء البناء القديم إلَى نهايات القرن السـادس عشر وتغـير إسـمه إلَى من قـام بالتعمـير، وأصبح يسمى جامع الوزير بالاضافة كونه مَدرَسَة.
- ظهرت لوحة تبين شكل الجامع من جهة النهر وبقبتـة الضخمة ويظهر بصـورة واضحة إن طراز بنـاء القبة مـن العصر العَبَّـاسيّ والتي رسـمها جيمس فيتز أحد أفراد بعثة جسـني البريطانيَّة لستكشـاف نهري دجلـة والفرات سنة ١٨٣٦م.
- وفي لوحـة إخـرى يظهر الجامع وفـد إنهارت واجهته الشـاطئيَّة وسـاحت في النهر رسـمها الاثـاري الفرنـسي يوجـين فلانديـن في سـنة ١٨٤٠م وسـبب إنهيار القبة نتيجة فيضانات بَغـدَاد والتـي حصرناهـا بـين عـام ١٨٣٦م و١٨٤٠ .
- وقـد بقي الجامع مهمل حتى إعيد بنائه بهيئة جديدة في مختلفة عن السابق خمسينات القرن العشريـن وبذلـك ضـاع معلم فريد مـع قبته المميزة .

المَصَادِر والمراجع

أولاً- الكتب العربيَّة

- أحمد سوسـة، فيضانات بَغـدَاد، القسـم الثاني، مطبعة الأديب، بَغدَاد،١٩٦٥.
- بشـار عواد معـروف، التربيَّة والتعليم، موسـوعة الحضارة، ج٨، بَغدَاد،١٩٨٥.
- عبد الـرزاق بن أحمد بن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الأسماء والألقاب، تحقيق مصطفى جواد، ج٤، المجمع العلمي، دمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.
- عبـاس العزاوي، العراق بين احتلالين،ج٤، بَغدَاد، مطبعة التجارة، ١٩٤٩.
- عبدالحميـد عبـادة، العقـد اللامـع بآثـار بَغدَاد والمسـاجد والجوامع، تحقيق د.عماد عبد السـلام رؤوف، بَغدَاد، مطبعة دجلة، ٢٠٠٤.
- عماد عبدالسـلام رؤوف، مَدَارِس بَغدَاد في العصر العَبَّاسيّ، مطبعة البصري، بَغدَاد، ١٩٦٦.

- عمـاد عبـد السـلام رؤوف،العـراق كمـا رسـمه المطراقـي زاده سـنة ٩٤١هـ-١٥٣٤م، مركـز كربلاء للدراسات والبحوث، كربلاء، ٢٠١٥.
- محمد سعيد الراوي، خير الزاد في تاريخ ومساجد وجوامع بَغدَاد، تحقيق د.عماد عبد السلام رؤوف، مطبعة الوقف السني، بَغدَاد، ٢٠٠٦.
- محمد المحلاوي، بَغدَاد بأقلام الرحالة، دار الوراق، بَغدَاد، ٢٠٠٧.
- محمـود شـكري الآلـوسي، تاريخ مسـاجد بَغدَاد وآثارها، تحقيق عبدالله الجبوري، بَغدَاد، ٢٠٠٦.
- مصطفى جواد أحمد سوسة، دليل خارطة بَغدَاد، المجمع العلمي العراقي، بَغدَاد، ١٩٥٨.
- ناجي معروف، نشأة المَدَارِس المستقلة في الإسلَام، مطبعة الازهر بَغدَاد، ١٩٦٦.
- ياقـوت الحمـوي، معجـم البلـد، ج ١-٦، تحقيق محمد أمين الخانجي، القاهرة، ١٩٠٦.

ثانيا- الكتب الأجنبيَّة

- WILLIAM BATTERSBY.،،JAMES FITZJAMES،،: The Mystery Man of the Franklin Expedition.UK.2010.
- WM. Perry Fogg. A.M: Arabistan or the Land of ''The '' The Arabian night's '' . Chicago. USA.1875.
- Henry a.stern . .Dawnings of light in the East. landon.1854 .
- GENERAL FRANCIS RAWDON CHESNEY, NARRATIVE OF THE"EUPHRATES EXPEDITION,LONDON,1868.
- Eugene.Flindin ,"VOYAGE EN MESOPOTAMIE", NOUVEAU JOURNAL " LE TOUR DU MONDE", S4 , PARIS,1861.

ثالثا- الدوريات والمجلات

- المسـعود عبـد الوهـاب، مجلـة المنتقـى للبحوث والدراسات، مج٢،العدد ٤،٢٠١٢
- عباس العزاوي، جامع الوزير، مجلة بَغدَاد، العدد ٢٣، ١٩٦٥.
- عبد العزيز حميد، سـوق السراجين ببَغدَاد، مجلة سومر، مج ٥٣، ج ١-٢، بَغدَاد، ٢٠٠٥-٢٠٠٦.
- محمـد المحلاوي، رحلـة بكنغهام وصـف بَغدَاد، مجلة سومر، مج١٠، ج٢، ١٩٥٤.
- مصطفى جواد، المَدرَسَـة النظاميَّة، مجلة سومر، مج٩، ج٢، ١٩٥٣.
- مروان بن شوش، دور المَدَارِس في النهضة العلميَّة بالمـشرق الإسـلَاميّ خـلال القـرن (٥-٦هـ) (١١-١٢م)،مجلـة الإصبـاح للعلـوم الانسـانيَّة، عدد٦،٢٠٢١.

رابعا- شبكة الانترنت

- www.artvee.com
- www.jamesfitzjames.com
- britishmuseum.org.www